﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨﴾ [الحديد: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

دعـــوةُ أهـل الكتاب للإيمان بـرسـول اللـهِ ﷺ خـاصَّـةً، بـعـد أن آمـن الصّادقون منهُم بمَن سبقَهُ مِن الرُّسل الكرام

لمّا قرَّر اللّهُ تَعالى في الآيتين السّابقتين أنَّ الرّسلَ دُعاةٌ للحقِّ إلى سيِّدِهم طوعًا أو كرهًا بالكتابِ والحديدِ، وقرَّرَ أنَّ السَّعادةَ كلَّها في اتِّباعِهم، وأنَّ البدعَ لا تَأتي بخيرٍ، وأنَّ أصحابَ عيسى عليه السلام - الذي نَسَخَ شريعةَ من قبلَه - ابتدعوا بدعةً، فَوُكِلوا إليها، فَفَسَقَ أكثرُهم، فاقتضَى ذلكَ إرسالَ مَن ينسخُ كلَّ شريعةٍ تقدَّمتهُ نسخًا لا زوالَ لهُ؛ لأنَّه لا نَبيَّ بعدَه؛ أنتجَ ذلك دعوتَهُم إلى الإيمان برسول اللّهِ ﷺ خاصَّةً بعد إيمانهم برسولهم، وأنْ يُقِرّوا بذلك إقرارًا صحيحًا، وأنْ يؤمنوا إيمانًا مضمومًا إلى إيمانهم باللّه تَعالى، فإنَّه لا يصحُّ الإيمان به إلّا مع الإيمان برسولِهِ ﷺ؛ لأنَّ رسالتَهُ عامَّة، نَسَخَتْ جميعَ ما تقدَّمه من الشَّرائِع، ولذا جاء الوعدُ بإيتائِهِم نَصيبَيْنِ ضَخْمَيْنِ مِن رَحْمتِه تَعالى، تحصينًا لَهُم، وهذا التَّحصين لأجل إيمانهم به ﷺ وإيمانهم بمَن تقدَّمه، وزاد في الوعدِ الجزيلِ بأن يجعل لهم نورًا مجازيًّا يَمْشون به في الدُّنيا مِنَ العُلومِ والمعارف القلبيَّة، ونورًا حسّيًّا في الآخرة، ولمّا كانَ الإنسانُ لا يخلو من نقصانٍ، فلا يبلغُ جميعَ ما يَحِقُّ للرَّحمنِ؛ وعدهم اللّهُ تَعالى بمغفرةِ ما فرطَ منهم من سهوٍ وعمدٍ وهزلٍ وجدٍّ، ولما قرَّر سُبحانَهُ ذلك؛ أتبعه التَّعريفَ بأنَّ الغفرانَ - وما يتبعه من الرَّحمةِ - صفةٌ له سُبحانَهُ شاملةٌ لمَن يُريدهُ هو[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 323 - 324.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كِفْلَيْنِ﴾: مثنًّى، مفرده: كِفْلٌ، مأخوذٌ من الكافِ والفاءِ واللّام، وهو أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تَضَمُّنِ الشَّيءِ الشَّيءَ، ومن ذلك: الكِفْلُ، وهو كساءٌ يُدارُ حولَ سنامِ البعيرِ، أو هو كِساءٌ يُعقدُ طرفاه على عَجُزِ البعيرِ؛ ليركبَه الرَّديفُ، والكفيلُ: الضّامنُ، وهو: الذي يكفلُ إنسانًا يعولُه، قال اللّه تَعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: 37]، ومِن معانيهِ النَّصيب، والضِّعف من الأجرِ والإثمِ[1]، والكِفْل بمعنى الحظِّ والنَّصيب، هو: قَدْرُ أيِّ كتلةٍ وكمٍّ من الشَّيء[2]، والمرادُ بـ ﴿كِفْلَيْنِ﴾ في الآية، أي: نصيبَيْن يَحْفَظانِهم مِنَ المعاصي الموقِعَة في الهَلَكة، أو: نصيبَيْن مِن نِعْمَتِه في الدّنيا والآخرة[3]، أو أنَّ المرادَ النِّعمةُ المتواليةُ المُتَكَفِّلَةُ بكفايتِه، ويكونُ تثنيتُه على حَدِّ قولهم: (لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ)[4].

2) ﴿تَمْشُونَ﴾: (مشي) أصلانِ صحيحانِ، يدلُّ أحدُهما على حركةِ الإنسانِ وغيرِه، وهو الانتقالُ من مكانٍ إلى آخرَ، ومِنه: مَشَى يمشي مشيًا[5]، والمعنى المحوريّ: انتقالٌ بحركةِ الأرجلِ أو نحوِها بلا حِدَّةٍ، فهو انتقالٌ بالأرجلِ قليلًا قليلًا بلا حِدّةٍ، على خلاف الجَرْي[6]، والمرادُ بـ ﴿تَمْشُونَ﴾ في الآية الكريمةِ يَحْتَمِلُ إرادةَ الحقيقةِ، بمعنى المشي يومَ القيامةِ بما يُعْطيهم مِن النّورِ، ويَحْتَمِلُ إرادةَ المجازِ، بمعنى تدبيرِ الأمورِ، أي: يُبيّن لكم السّبيلَ، ويوضِّحُ الحقَّ[7].

3) ﴿وَيَغْفِرْ﴾: (غفر) مُعْظَمُ بابِه دالٌّ على السَّترِ، والمِغْفرُ: غطاءُ الرَّأس في الحرب، والغَفْرُ: السَّتْرُ، والغُفرانُ والغَفْرُ بمعنًى، يقال: غَفَرَ اللّهُ ذنبَه غَفْرًا ومَغفرةً وغُفرانًا، بمعنى: سَتَرَها، ولم يَفْضَحْه بها على رُؤوس الملأِ، وكلُّ شيءٍ سترتَه، فقد غَفَرْتَه، والاستغفارُ طلَبُ المغفرة، وكلُّ ما جاء في القرآن الكريم من (غفر) وتركيباته؛ فهو مِن

(1) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (كفل).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (كفل).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كفل).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (كفل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مشي).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (مشى).
(7) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 541 - 542.

مغفرة الذّنوب[1]، ومعنى ﴿وَيَغۡفِرۡ﴾ هَهُنا: يصفحُ عنكم، ويسترُ ذنوبَكم، فلا يؤاخذُكُم بِها[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

دعـــوةُ أهـل الكتاب للإيمانِ والـتَّـصـديـقِ بـالـرّسـولِ العدنانِ ﷺ

في هذه الآية الكريمة نداءٌ من الرَّحمن سُبحانَهُ لعبادة المؤمنين، وهم المؤمنون من أمَّةِ محمدٍ ﷺ بأن يَلْزَموا طاعتَه فيما أمَر، وأن يَجْتَنِبوا ما نهى، وزجَر، وأنْ يَثْبُتوا على إيمانهم، ويجدِّدوا العهدَ باليقين الصّادقِ، ويحتملُ أنْ يكونَ الخطابُ في الآيةِ لأهل الإيمانِ بعيسى عليه السلام، الذين ذكرهم اللّه تَعالى في الآية السّابقة بقولِه: ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ﴾، وهو الرّاجح عند جَمْعٍ كثيرٍ من المُفَسِّرين[3]، فالآية على ذلك دعوةٌ لهؤلاء المؤمنين من أهلِ الكتابِ؛ لأن يَتَّقوا اللّهَ تَعالى في أنفسِهم وفي دينِهم، وألّا يُهْلِكوا أنفُسَهُم، ويُفْسِدوا إيمانهم، فإنَّهم إذا ألْزَموا أنفسَهم صدقَ التَّقوى؛ كان عليهم أن يُؤمنوا برسول اللّه ﷺ، فإنَّ ما يَدْعوهُم إليه هو الإيمانُ الذي يُؤْمِنون به؛ إن كانوا مؤمنين حقًّا؛ ولهذا ناداهم اللّهُ تَعالى بقولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فمن كان مؤمنًا حقًّا من أهلِ الكتابِ؛ فإنَّه لا يجِدُ في الإيمان برسول اللّهِ محمَّدٍ ﷺ إلّا دعوةً مجدَّدةً للإيمانِ الذي تحملُه دعوة موسى وعيسى عليهما السلام؛ ولذا كان جزاؤُهم

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (غفر).

(2) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 11/ 7341.

(3) ممن رجح هذا القول من كبار المفسرين: ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 207، والماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 541، ومكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 11/ 7336، والواحدي، البسيط في التفسير: 21/ 319، والبغوي، معالم التنزيل: 5/ 36، والزمخشري، الكشاف: 4/ 482، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 217، وابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 239، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 266، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 191، والنسفي، مدارك التنزيل: 4/ 443، والخازن، لباب التأويل: 4/ 253، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 214، وإسماعيل حقي روح البيان: 9/ 385، وابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 332، ويحتمل أن يكون الخطاب للفريقين كما أشار البقاعي، نظم الدرر: 19/ 323، والطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 427.

إن استجابوا لهذا الأمرِ الشَّريفِ أنْ يُؤْتيَهُم اللهُ تَعالى كِفْلَينِ من رحمته، أي: جزاءً مضاعفًا من رحمته، جزاءً على إيمانهم بموسى وعيسى عليهما السلام، وجزاءً على إيمانهم بمحمَّد ﷺ. وزاد على هذا الجزاءِ العميم الوعدَ بأنْ يجعل لهم نورًا من أنوارِ الحقِّ يمشون به في الدُّنيا يَكْشِفون به معالمَ الطَّريق إلى الله تَعالى، وقَبَسًا من أنوارِ النَّعيم يَمْشون به في عرصاتِ القيامةِ، فهو نورٌ يَسْعى بين أيديهم وبأيمانِهم، كما يقول سُبْحانَهُ: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾، ثُمَّ زاد على ذلك الوعدَ بالمغفرةِ التّامَّةِ والرَّحمةِ الشّاملةِ، التي لا يتَّصفُ بها أحدٌ سواه، وبهذا يتحقَّقُ - لمَن يؤمنُ برسولِ الله ﷺ مِن مُؤْمِني أهلِ الكتاب - مضاعفةُ الجزاء لهم، وإيتاؤهم أجرَهم مرَّتين، وأن يجعلَ اللهُ تَعالى لهم بهذا الإيمانِ نورًا يمشون به في الدُّنيا والآخرة، وأن يغفرَ لهُم ما يقَعُ مِنْهُم مِن أخطاءٍ أو آثامٍ بواسِعِ رحمته ومغفرته[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغَةُ نداءِ المؤمنين في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، افتتح النَّظمُ الجليلُ الآيةَ بأسلوب النِّداءِ؛ تنبيهًا على الاهتمامِ بمضمونِ القولِ، وهو الأمرُ بالتَّقوى والإيمان بنبوَّة محمَّد ﷺ، وخاطَبَهُم بصِفَةِ الإيمان؛ تنبيهًا على أنَّ ما يأتي في الخطابِ هو من أعمالِ المؤمنين الصّادقينَ في إيمانهم حثًّا لهُم على التَّحلّي بهذه الصِّفة العظيمةِ، وإن كانَ دخلَ إيمانَهُم شوبٌ من التُّرَّهاتِ التي حرَّفَ بها أهلُ الكتاب رسالةَ عيسى عليه السلام؛ فيجبُ عليهم أنْ يُطَهِّروا اعتقادَهُم منها.

جـذبُ انـتـبـاهِ الـسـامـعـينَ لخطورةِ قضيَّةِ الإيمانِ برسولِ اللهِ ﷺ

سِرُّ إيثارِ النِّداءِ بِـ (يا) دونَ غيرِها:

جاء النِّداء بـ (يا) في قول الله تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾،

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 800 - 802.

علوُّ قدرِ الخالقِ سُبحانَهُ عن أوهامِ النَّصارى وأكاذيبِ اليهودِ

وهي في الأصلِ لنداءِ البعيدِ؛ لما فيها مِن مدِّ الصَّوتِ، فلاءمَتْ نداء الشَّيءِ المُتراخي البعيد[1]، ونداءُ اللهِ تَعالى لعَبادِهِ نِداءٌ مِنَ الخالِقِ إلى المَخْلوقين، فَجديرٌ أنْ يَكونَ بأداة النِّداء للبعيد؛ لِبُعْدُ ما بينَ الخالِقِ والمَخْلوقِ مِنَ المَكانةِ، وفيه أنَّه نِداء مِنَ الخالِقِ، وهو مُقْتَضٍ أعْلى العلوِّ وأبعدَه، ويُظهرُ ذلك عِظَمَ شأنِ موضوع النِّداءِ، وضرورة العنايةِ بهِ، والمُبالغة في حَثِّهم على المُحافظةِ عليه، فلاءَم النِّداءُ بالياءِ تقديسَ اللهِ تَعالى عن أوهامِ النَّصارى وأكاذيبِ اليهودِ.

سِرُّ النِّداءِ بِـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

في الانتقالِ من الإبهامِ إلى الإيضاحِ توكيدٌ وتنبيهٌ

النِّداءُ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ في قول اللهِ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، فيهِ ضَرْبٌ مِن تَقْوِيَةِ النِّداءِ، ووَجهُ ذلك: أنَّ (أيّ) لا يُفْهَمُ المراد منه إلَّا باسم بعَدَهُ يُزيلُ غُموضَهُ، وفي هذا انتقالٌ مِنَ الإبهامِ والغموضِ إلى الإيضاحِ والبَيانِ، وفي هَذا نَوعُ توكيدٍ، وفي اقترانه بـ (ها) التَّنبيه زيادةٌ في التَّوكيدِ؛ إذِ النِّداءُ في الأصل يُراد به التَّنبيه، فجاءَ النَّظمُ بما يُشْعِرُ بخطورةِ ما سيأتي بعد النِّداءِ والتَّنبيه، ولذا فَقَد عدَلَ عنِ التَّعبير بغيرهِ مِنَ الأساليب، فلم يقل: (يا أهل الكتاب الذين آمنوا بعيسى ﷺ)؛ تنبيهًا وتوكيدًا وإرشادًا لهذه الفائدةِ.

سِرُّ النداءِ بِالاسمِ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

ثباتُ الإيمانِ في نفوسِ المؤمنينَ، وظهورُهُ في سلوكِهم وطبائعِهم

آثرَ البيانُ القرآنيُّ النِّداء بالاسم الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع صلتِهِ؛ لما فيهِ مِنَ الإيماءِ إلى ثباتِ ذلكَ الإيمانِ في نُفوسِهم، وظُهورِهِ في سلوكِهم وطبائعِهم، فالجملةُ الموصوليَّةُ أفادَتِ المدحَ والتَّقريظَ من جهةٍ، وأفادتِ الحثَّ والترغيبَ في السيرِ على منوالِ المؤمنين الصالحين في صدقِ الإقرارِ بنبوَّةِ محمد ﷺ ونفي الأوهام في ذات اللهِ تعالى والتشريع في العبادة بما لم يأذن به اللهُ.

(1) سيبويه، الكتاب: 2/ 230.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالصِّلَةِ فعْلًا ماضيًا:

التَّلبُّسُ بالإيمانِ واستِصْحابُه في كُلِّ أحْوالِ المُؤْمِنينَ وثَباتُه في نُفوسِهم

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن مؤمني أهلِ الكتابِ بالاسمِ الموصولِ مع الفعلِ الماضي، وليس باسمِ الفاعلِ؛ وذلكَ لأنَّ الإتيانَ بالموصولِ مع الصِّلةِ بالفعلِ الماضي قُصِدَ به التَّلبُّسُ والاستصحابُ[1]، إضافةً إلى ذلكَ فإنَّ الاسمَ الموصولَ مع الفعْلِ الماضي دلَّ على زمانٍ ماضٍ مُحَدَّدٍ، عكس اسمِ الفاعلِ الذي لا يدلُّ على زمانٍ مُحَدَّدٍ، وأيضًا فإنَّ ضَميرَ واو الجماعَةِ في ﴿ءَامَنُواْ﴾ فيهِ قصديَّةُ الإيمانِ والتَّوجُّه إليهِ بكلِّ حواسِّهم ومشاعِرِهم، فكان الأوْلى التّعبير بالاسمِ الموصولِ؛ وذلك لِما فيهِ مِن إشارةٍ إلى بيانِ سَبَبِ هَذا النِّداءِ بإخلاصِ التَّقوى والإيمانِ برسولِ اللهِ ﷺ، وكذلك فإنَّ في التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾ دلالةً على تحقُّقِ الإيمانِ في نُفوسِهم وثباتِه ورُسوخِهِ.

دلالةُ إيثارِ التَّعبيرِ بفِعْلِ الإيمانِ دونَ الإسلامِ:

المُعَوَّلُ في حقيقةِ الإيمانِ على القلبِ مع الجوارِحِ، لا إسلامِ الجوارِحِ وحدَها

آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بفعلِ الإيمانِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ دونَ فعلِ الإسلامِ (أسْلَموا)؛ لِما في الإيمانِ من الدَّلالةِ على تمامِ انقيادِ القلبِ للهِ تَعالى، ولمّا كان الخطابُ في الآيةِ للذين آمنوا من أهلِ الكتابِ، وكان الاختلافُ معَ مَن تَمَسَّكوا بعقائدِهم الفاسدةِ؛ جاء التَّعبير بلفظِ الإيمانِ دون لفظِ الإسلامِ؛ لأنَّ المُعَوَّلَ في صحَّةِ الإيمانِ على إيمانِ القَلبِ مَعَ تَسليمِ الجوارِحِ، لا إسلامِ الجوارِحِ وحدَها.

دلالَةُ حذْفِ متعَلَّقِ الفعْلِ ﴿ءَامَنُواْ﴾:

شمولُ مفهومِ الإيمانِ لكُلِّ أركانِهِ وفُروعِه

حذفَ البيانُ القرآنيُّ متَعَلَّقَ الفعلِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ إمّا للعلمِ به، فهوَ المذكورُ في قولِه ﷺ: «أنْ تُؤْمِنَ باللهِ، ومَلائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، واليَومِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ»[2]، فصارَ هذا القولُ بمنزلةِ المفهومِ المعروفِ، فإذا قيلَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ فُهِمَ المقصودُ

(1) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 8/ 186.
(2) رواه مسلم في صحيحه برقم: (8).

منْ تعلُّقِ الإيمانِ دونَ تركٍ لأيِّ رُكْنٍ من أركانِه، أو لأيِّ فرعٍ من فروعِه، وإمّا للإيجازِ الذي هو أحدُ أهمِّ خصائصِ النَّظمِ الجليلِ، في اكتِنازِ اللَّفظةِ القرآنيَّةِ بمعانٍ كثيرةٍ.

دَلالةُ تكرار وصف الإيمان:

تخصيص القولِ للخُلَّصِ من المؤمنين من النَّصارى ومن أمَّةِ محمَّدٍ ﷺ كِلَيهما

عبَّر النَّظم الجليلُ عن المخاطَبينَ بصفة الإيمانِ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، بَعْدَ أن سبَقَ ذِكْرُهُم بالوَصْفِ نفسِه في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْۖ﴾؛ وذلك لتخصيصِ هذهِ الفِئَةِ المُؤْمِنَة بالحديثِ فضلًا عن أمَّةِ محمَّدٍ ﷺ، بخلاف الكثرة الفاسقة التي عبَّرَ عنها في قولِه: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، فالغالبُ في القرآن الكريم أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لقَبٌ للمؤمنين بمحمَّدٍ ﷺ، ولكنْ لمّا وقعَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هنا عقبَ قولِه: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْۖ﴾، أي: مِن الذينَ اتَّبعوا عيسى عليه السلام؛ احْتَمَلَ قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أن يكونَ مُستعملًا استعمالَه اللَّقبيَّ، أي: كونُه كالعَلَمِ بالغلبةِ عَلى مُؤْمني ملَّة الإسلام، واحتملَ أنْ يكونَ قد استُعمِلَ استعمالَه اللُّغويَّ الأعمَّ، أي: مَن حصل منه إيمانٌ، وهو هنا مَن آمنَ بعيسى عليه السلام، والأظهرُ أنَّ هذينِ الاحتمالين مقصودانِ؛ ليأخذ خُلَّصُ النَّصارَى من هذا الكلامِ حظَّهُم، وهو دعوتُهم إلى الإيمانِ بمحمَّدٍ ﷺ؛ ليَستَكمِلوا ما سبق من اتِّباعِهم عيسى عليه السلام؛ فيكونُ الخطابُ موجَّهًا إلى الموجودينَ ممَّن آمنوا بعيسى عليه السلام، أي: (يا أيُّها الذينَ آمنوا إيمانًا خالصًا بشريعةِ عيسى اتَّقوا اللهَ، واخشوا عقابَه، واترُكوا العَصبيَّةَ والحسدَ وسوءَ النَّظرِ، وآمنوا بمحمَّد ﷺ)، وأمّا احتمالُ أن يُرادَ بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: الإطلاقُ اللَّقَبيُّ؛ فيأخذ منه المؤمنونَ أهلُ المِلَّةِ الإسلاميَّةِ بِشارةً بأنَّه لا يقلُّ أجرُهم عن أجرِ مؤمني أهلِ الكتابِ؛ لأنَّهم لمّا آمنوا بالرُّسلِ السّابقينَ؛ أعطاهُم اللهُ تَعالى أجرَ مؤمني أهلِ مِلَلِهم[1].

(1) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 427.

سِرُّ الأمْرِ بالتَّقوى بعدَ الإيمانِ:

توكيدُ خطورةِ الشِّرك ونفي نبوةِ محمَّدٍ ﷺ والابتداعِ في شرعِ اللهِ تَعالى

جاءَ الأمرُ بالتَّقوى في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ اعتراضًا خلال الحديثِ عن وجوبِ الإيمانِ برسولِ اللهِ ﷺ، والابتعاد عن طريق الكثرة الفاسقَةِ التي كذَّبت برسول اللهِ ﷺ من المشركين، والكثرة الفاسقة التي ادَّعت في عيسى عليه السلام من الألوهيَّة ما ليس فيهِ، فكان من جرّاءِ ذلك أنَّهم أنكروا نبوَّة محمَّدٍ ﷺ، فالأمرُ بالتَّقوى في هذا السّياق تأكيدٌ لخطورةِ الشِّرك والقولِ في شرع اللهِ تَعالى ما لم يأذَن به من العقائدِ والعبادات؛ إذِ الإيمانُ أمرٌ قلبيٌّ في المقامِ الأوَّلِ، والتَّقوى تحقيقُ هذا الإيمانِ بالعملِ الصّالح الخالص من أدران الشِّرك والوثنيَّة، واتِّباع الأوامرِ واجتناب المَنْهيّات في الاعتقادِ والعِبادَةِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بِالتَّقوى دونَ الخَشيةِ أو الخوفِ:

التَّقوى هي المُحصِّلة النِّهائيَّة للخشية والخوفِ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالأمر بالتَّقوى في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، دون الأمرِ بالخشية أو الخوفِ؛ لأنَّ حقيقةَ التَّقوى أنْ يجعل المؤمنُ بينَهُم وبين معاصي اللهِ تَعالى حاجزًا من تعظيمِ اللهِ سُبحانَهُ يحجزه عن الوقوع فيها، وأمّا الخوفُ من اللهِ تعالى؛ فهو الرَّهبةُ منه واستشعارُ عظمتِه والوقوفُ بين يَدَيْهِ؛ لِما بدرَ منه مِن المعاصي والذُّنوب، وأنَّه يعلمُ سرَّ العبدِ وجهرَه وما توَسوسُ به نفسُه، وأمّا الخشيةُ؛ فهي جزءٌ من الخوف، ولكنَّها أخصُّ منه، فهي تتضَمَّن مهابةَ المخوفِ منهُ واستعظامَ قدرِه وانكسارَ القلبِ له، ولا تكون حقيقتُها إلّا ممَّن عنده علمٌ بالمَخوف منه، وعلى ذلك فالخشيةُ والخوفُ يكونان في المقام الأوَّل ندمًا وتحسُّرًا على ما بدرَ منه فيما مضى، والتَّقوى هي المحصِّلة النِّهائيَّةُ للخشيةِ والخوفِ كليهما.

سرُّ التَّعبيرِ بالاسمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾ مُظْهَرًا:

في قوله عَزَّ ذِكرُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، جعل

في إظهارِ الاسم الأحسنِ توكيدٌ على خطورةِ قضيَّةِ التَّقوى والمهابة لله تَعالى

النَّظمُ الكريم فعلَ التَّقوى المأمور به واقعًا على الاسم المُتَضَمَّنِ لمعاني الجلال والكمال؛ تعظيمًا لوجوب هذه التَّقوى، أي: خافوا عقابَه، فاجعلوا بينكُم وبين سخطه وقايةً؛ لأنَّه الملكُ الأعظمُ، وذلك بحفظِ الأدبِ معهُ، وعَدمِ أمْنِ مَكْرِه، فكونوا على حَذَرٍ مِن أنْ يسلبَكم ما وهبَكُم، فاتَّبعوا الرَّسولَ ﷺ؛ تَسْلَموا، وحافظوا على اتِّباعِه؛ لئلّا تَهْلَكوا[1].

سِرُّ إيثار اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ دونَ لفظِ الرُّبوبيَّةِ:

الحثُّ على الإيمانِ بمحمَّدٍ ﷺ، وتخليصِ الاعتقادِ من الشِّركِ

التعبيرُ بالألوهيَّةِ عادةً ما يكون في سياقِ الأمرِ بإخلاصِ العبادةِ والتَّنزُّه عن الشِّركِ، وأمّا التَّعبيرُ بالرُّبوبيَّة؛ فعادةً ما يكونُ في سياقِ التَّذكيرِ بالنِّعَمِ المربّيَة للعبدِ؛ إظهارًا لفضل الرَّبِّ سُبحانَهُ عليه، ولذا كان التَّعبيرُ بالألوهيَّةِ هنا أنسبَ لسياقِ تخليصِ الاعتقادِ من الشِّركِ، والإيمانِ بمحمَّدٍ ﷺ، وعدمِ القولِ في شرعِ اللّه تَعالى بما لم يأذن بهِ.

بَلاغةُ عطفِ الأمرِ بالإيمان على الأمْرِ بالتَّقوى:

الإيمانُ بالرَّسولِ ﷺ شرطٌ لصحَّةِ الإيمانِ مهما بالغَ بعضُهم في ادِّعاءِ التَّقوى

جاءَ عطفُ الأمرِ بالإيمان على الأمرِ بالتَّقوى، في قولِه تَعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾؛ للجمع بين الإيمانِ بشِقَّيْهِ: القلبيِّ والعَمَليِّ، فإنَّ الأمرَ بالتَّقوى غالبًا ما ينصبُّ على الأعمالِ الظّاهرةِ، والأمرُ بالإيمان عادةً ما ينصبُّ على الأعمالِ القلبيَّةِ، فلرُبَّما ظنَّ بعضُ مَن ابتَدَعوا الرَّهبانيَّةَ أنَّهم بتقواهم للّهِ تَعالى بهذه العبادات الظّاهرةِ قد حقَّقوا شرطَ الإيمانِ الصّحيح، فجاءَ العطفُ هنا لبيانِ المغايرةِ بين الأمرين، فالإيمانُ بالرَّسولِ ﷺ شرطٌ لصحَّةِ الإيمانِ؛ مهما بالغَ مؤمنو أهلِ الكتابِ في ادِّعاءِ التَّقوى دون الإيمانِ بالرَّسولِ ﷺ عامَّةً، وبما جاءَ به من العبادةِ والتَّشريع خاصّةً.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 324.

سِرُّ الأمرِ بالإيمانِ، مع سَبْقِ وصْفِهم به:

تجـدُّدُ الإيمـانِ يقتضي تجـدُّدَ الأمرِ بهِ؛ ليدومَ عليه أهْلُهُ

في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ أمَرَ اللهُ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالإيمان في قولِه: ﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾، مع أنَّ وصْفَهم بالإيمان يقتضي أنَّهم مؤمنون، والحقُّ أنَّ الأمرَ بالإيمانِ في الآيةِ مغايرٌ للوصفِ بالإيمانِ؛ إذ المرادُ من الأمرِ بالإيمان أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَءَامِنُواْ﴾ مستعمَلًا في الدَّوام على الإيمانِ، كقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: 136]، ويكونَ إقحامُ الأمرِ بالتَّقوى في هذا الاحتمالِ قصدًا لأنْ يحصلَ في الكلامِ أمرٌ بشيءٍ يتجدَّد، ثُمَّ يُردَف عليه أمرٌ يُفهم منه أنَّ المرادَ به طلبُ الدَّوام، وهذا من بديعِ نَظمِ القرآنِ[1].

خـصـوصـيَّـةُ الإيمانِ برسولِ اللهِ مُحَمَّدٍ ﷺ

وفي تخصيص الأمرِ بالإيمان برسول اللهِ ﷺ دفْعٌ لتوهُّم مَن قد يظنُّ مِن أهل الكتابِ عامَّةً والنَّصارى خاصَّةً أنَّ إيمانه باللهِ تَعالى على أيِّ وجهٍ قد حقَّقَ له تمامَ فضيلةِ الإيمانِ، فلا إيمانَ خالصًا سوى ما كان شطرُه الإيمانَ برسول اللهِ ﷺ.

دَلالةُ تعديةِ (آمِنوا) بِالباءِ:

الإيمانُ الصّادقُ إذا الـتـصـقَ بالنَّفس؛ فإنَّهُ لا يزولُ

عدَّى النَّظم الجليلُ الفعلَ (آمِنوا) بحرف الباءِ في قولِه: ﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾؛ لإفادة لزومِ التَّصديق برسولِ اللهِ ﷺ؛ لِما فيها مِن مَعْنى الإلصاقِ[2]، أي: التصاق الإيمان في قلوبِهم ونُفوسِهم وعُقولِهم، وهو إلصاقٌ مجازيٌّ مأخوذٌ من المَعْنى الحقيقيِّ، وفيه دلالةٌ على أنَّ الأمرَ هَهُنا هوَ بالإيمانِ الصّادقِ الدّائم الذي لا تشوبه شائبةٌ، فيَلْتَصِقُ بالنَّفس، فلا يزولُ أبدًا.

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ (رَسولِه) مفردًا:

جاءَ النَّظمُ الجليلُ بتخصيصِ الإيمان برسولِ اللهِ مُحَمَّدٍ

(1) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 427.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

ﷺ، وذلك على خلاف الآية السّابقة في قولِه: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾؛ إذ المرادُ في هذا الموضعِ تخصيصُ الإيمانِ برسولِ اللّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ وذلك لبيانِ أنَّه ﷺ الرَّسولُ الذي لا رسولَ للّهِ الآنَ غيرُه، فيَجِبُ أن تُؤْمِنوا به إيمانًا مضمومًا إلى إيمانِكم باللّهِ تَعالى، فإنَّه لا يصحُّ الإيمانُ به إلّا مع الإيمانِ برسوله مُحَمَّدٍ ﷺ، وبأن تَثْبتوا على الإيمانِ بهِ، وتضمّوا الإيمانَ به إلى الإيمانِ بمَن تقدَّمَه يا أهلَ الكتابِ؛ لأنَّ رسالتَه ﷺ عامَّة، فقد نَسَخَتْ جميعَ ما تقدَّمتْها من الشّرائعِ، فإيّاكم أنْ يميلَكم عنه ميلٌ من حسدٍ أو غَيرِه، فبادروا إلى إجابتِه، والزَموا جميعًا الحَذَرَ في اتِّباعه والإيمان به، فلا تميلوا إلى بدعةٍ أصلًا[1]، وكذلك فإنَّ تخصيص الخطاب بالنَّبيِّ ﷺ فيه ما لا يَخْفى مِنَ الدَّلالةِ على جلالةِ قَدْرِه ﷺ[2].

تخصيصُ الإيمان برسولِ اللهِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ إذ لا إيمانَ أصلًا لِمَن لَم يُؤْمِن به

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظ الرسول مضافًا دون النبيِّ:

لَمَّا قَرَنَ النَّظمُ الجليلُ طَلَبَ الإيمانِ باللّهِ تَعالى في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ بأعظم صفاته سُبحانَهُ، وهي الألوهيَّةُ المتضَمِّنُ إيَّاها اسمُ الذَّاتِ في قولِه: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ ربَطَ الإيمانَ بالرَّسولِ بأخصِّ صفاته ﷺ، وهي الرِّسالة، وذلك مَعلومٌ من تعليق الإيمانِ بوصف الرَّسولِ دون اسمِهِ العَلَم، فرَبَط أعظَمَ المطالبِ بأعظمِ الصِّفات، وكذلك فإنَّ المَوْضِعَ هَهُنا في سياق الأمرِ بالإيمان والاتِّباعِ، ودلالةُ لفظِ (رَسوله) على طلب الاتِّباعِ أقوى من لفظ (نَبيِّه)؛ لِما في لفظِ الرِّسالةِ دلالةٌ على الاستقلالِ بالتَّبليغِ والتَّشريع، وفي إضافة لفظ (رسول) إلى الضَّمير العائدِ إلى اللّهِ تَعالى تشريفٌ للمضافِ وتعظيمٌ لَهُ.

في التَّعبير بصفةِ الرِّسالةِ دلالةٌ على الاستقلالِ في التَّبليغِ والتَّشريعِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 324.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 192.

سِرُّ الاكتِفاءِ بِالإيمانِ بِرسولِهِ دونَ بقيَّةِ أركانِ الإيمانِ:

الإيمانُ برسولِ اللهِ ﷺ وحسنُ اتِّباعِه يتضمَّنُ الإيمانَ بكلِّ الأركانِ

اكتفى النَّظمُ الجليلُ بالأمرِ بالإيمانِ برسولِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، في قولِه: ﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾، دونَ بقيَّةِ أركانِ الإيمانِ؛ لأنَّ الإيمانَ الصّادقَ برسولِ اللَّهِ ﷺ يتضمَّنُ كلَّ أركانِ الإيمانِ القلبيَّةِ، والصِّدقَ في اتِّباعِه يتضمَّنُ كلَّ الأعمالِ الصّالحةِ، فضلًا عن أنَّ المقامَ هَهُنا ليس مقامَ تفصيلٍ في أركانِ الإيمانِ، بل هو دعوةٌ لأهلِ الكتابِ خاصَّةً، وللمؤمنينَ عامَّةً بتحقيقِ الإيمانِ برسولِ اللَّهِ ﷺ، وبيانِ حُسْنِ الجزاءِ وسَعَةِ الرَّحمةِ، فكانَ الإيجازُ أَوْلى وأنسبَ للسِّياقِ.

بَلاغةُ التَّعبيرِ بِجملةِ ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ جَوابًا للأمرِ:

عطاءُ اللهِ تَعالى لأهلِ الإيمانِ واسعٌ لا ينفدُ

جُزِمَ المضارعُ في قولِه تَعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾؛ لأنَّه واقعٌ في جوابِ الطَّلبِ، أو على تقديرِ الشَّرطِ، والفاعلُ ضميرٌ مستترٌ تقديرُه (هو) يعودُ على اللَّهِ تَعالى، والكافُ ضميرٌ في محلِّ نصبٍ مفعولٌ به أوَّل، و﴿كِفْلَيْنِ﴾: مفعولٌ به ثانٍ[1]، والمعنى: يُؤتِكم جزاءً في الآخرةِ، وجزاءً في الدُّنيا، فجزاءُ الآخرةِ قولُه: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾، وقولُه: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، وجزاءُ الدُّنيا قولُه: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾، فالمرادُ: يُؤتكم أجرينِ عَظيمَيْنِ، وكلُّ أجرٍ مِنهُما هو ضِعْفُ الآخرِ مماثلٌ لهُ[2]، وفي الحديثِ الصَّحيحِ الذي رواه البخاريُّ في صحيحه أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: «ثَلاثَةٌ يُؤْتَونَ أجْرَهُم مَرَّتَينِ: رَجُلٌ مِن أهْلِ الكِتابِ آمَنَ بنَبيِّهِ، وأدْرَكَ النَّبيَّ ﷺ، فَآمَنَ بِهِ، واتَّبَعَهُ وصَدَّقَهُ، فَلَهُ أجْرانِ ...»[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بِالإيتاءِ مضارعًا دونَ الإعطاءِ:

الإيتاءُ أقوى وأعظمُ وأشدُّ فائدةً من الإعطاءِ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالإيتاءِ دونَ الإعطاءِ في قولِه: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾؛ للدَّلالةِ على عظيمِ الجزاءِ لِمَن آمَنَ

(1) الخطيب ومصلوح والعلوش، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 27/ 340.
(2) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 427.
(3) رواه البخاري في صحيحه برقم: (3011)، ومسلم في صحيحه برقم: (154).

برسولِ اللّهِ تَعالى مِن أهلِ الكِتاب ومِن أمَّةِ الإسلام؛ لأنَّ الإيتاءَ لا يكون إلّا للشَّيء الكثير والعظيم، كما في قولِه: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ [آل عمران: 148]، في حين لم يَرِدِ الإعطاءُ في القرآنِ إلّا دالًّا على الإعطاء القليلِ، وإذا جاءَ دالًّا على عطاءٍ كبيرٍ؛ قُرِنَ بما يشيرُ إلى ذلك من السّياق نفسِه، والإيتاءُ فيه قوَّة؛ لأنَّه لا يتوقَّف على قبولٍ، في حين أنَّ الإعطاء يتوقَّف على القبول، والإيتاءُ لا يكونُ إلّا عن رضًا وطيبِ نفسٍ، في حين قد يكونُ الإعطاءُ عن كُرهٍ[1]، ولمّا كانَ المقامُ مقامَ جزاءٍ وإحسانٍ لا حدَّ لمنتهاهما؛ جاءَ النَّظمُ بالإيتاءِ دونَ الإعطاءِ.

دَلالةُ الخِطابِ في قولِه: ﴿يُؤۡتِكُمۡ﴾:

في التَّخصيص تشريفٌ وبشارةٌ وحثٌّ على صدقِ الإيمانِ

جاءَ التَّعبيرُ بكاف الخطابِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ﴾؛ لتخصيصِ الخطاب بمن آمن بالرُّسل السّابقينَ، ثُمَّ آمن بمُحَمَّدٍ ﷺ، وبمَن آمَنَ مِن أمَّةِ الإسلام، وفي هذا التَّخصيص تشريفٌ كبيرٌ، وبِشارةٌ سارَّةٌ لهم، وفيه كذلك حثٌّ للفريقَيْنِ جميعًا على تحقيقِ صدقِ الإيمانِ به ﷺ.

سِرُّ التَّعبيرِ عن جزاء أهل الإيمانِ بِالكِفْلِ دونَ النَّصيبِ أو الضِّعف:

في الكِفل من معاني الثِّقلِ والمضاعفة والمماثلة ما هو أنسبُ للسّياقِ

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ﴾ آثَرَ النَّظمُ الجليلُ التعبيرَ بلفظِ الكفلِ دونَ النَّصيبِ، والكفلُ والنَّصيبُ كلاهُما بمعنى الحظِّ، ومن معاني الكفلِ في اللُّغةِ: النَّصيبُ المُساوي، ومنها: المِثل، أمّا النَّصيب؛ فهو مُطلقٌ، والنَّصيب عامٌّ: صغيرٌ وكبيرٌ وأكبرُ، وليس له شيءٌ محدَّدٌ، وقد وردت كلمَةُ كِفلٍ عندَ ذكر السَّيِّئة في قولِه: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ﴾ [النساء: 85]؛ لأنَّ السَّيِّئات تُجزى بقَدْرِها، ولا يزيد

(1) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن، ص: 27 - 29.

عليها، بدليلِ قولِه تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: 40]، أمّا الحسنةُ؛ فتُضاعفُ، وتتَّسعُ وتعظمُ، وقد تكون عشرةَ أضعافٍ، وقد تكون أكثرَ، ولَم يُحَدَّد أنَّها مثلها؛ لذا جاءت كلمة نصيب مع الحسناتِ؛ لأنَّ الحسنةَ لها نصيبٌ أكثرُ من السَّيِّئات، وقول بعضِ اللُّغويّين: إن النَّصيب في الأمورِ الحسنةِ، والكفلَ في الأمور السَّيِّئة؛ تردُّه الآيةُ هَهُنا ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر: 47]، وجاءَ الكِفْلُ هَهُنا بمعنى المثلِ؛ لأنَّ المرادَ أنَّ لهم مِثْلَين من أجر غيرهم ممَّن لم يُؤْمِن بسائر الأنبياءِ، وكذلك ففي مادَّة الكافِ واللّام والميم ما يدلُّ على الضَّمانِ والكفايةِ والثِّقلَ ومضاعفةِ الأجر، وهي معانٍ أنسبُ للسّياقِ من معاني النَّصيبِ أو الضِّعفِ أو المثل.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾:

الكِفْلُ في الأصل: كساءٌ يُعْقَدُ على ظهرِ البعيرِ، فيلقي مقدَّمه على الكاهِل، ومُؤخَّره على العَجُزِ، يَحفظ الرّاكب، ويَمْنَعُه مِنَ السُّقوط، والمراد في قولِه: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾: نَصيبان عظيمانِ من الرَّحمة، يَمْنَعان الشَّخص مِنَ العذابِ، كما يمنَع الكفلُ الرّاكب من السُّقوط[1]، فهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ أصليَّةٌ.

مِن رحمة الله تَعالى المبالغةُ في وقايةِ أهلِ الإيمانِ

دَلالةُ التَّعبيرِ بِالمُثَنَّى ﴿كِفْلَيْنِ﴾ دونَ المفردِ:

جاءَ التَّعبيرُ بالمُثَنّى في قولِه: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على عظيمِ الأجْرِ والجزاء، مثل قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأحزاب: 68]، وقولِه: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: 30]، والمرادُ بـ ﴿كِفْلَيْنِ﴾ في الآية، أي: نصيبَيْن يَحْفَظانِهم من المعاصي الموقِعَة في الهَلَكة، وقيل المرادُ: نصيبَيْنِ

عظيمُ الأجرِ والجزاء لمَن سارَ على دَرْبِ الأنبياءِ

(1) الصاوي، حاشية الصاوي على الجلالين: 6/ 570 - 571.

مِن نِعْمَتِه في الدّنيا والآخرة[1]، وهما المرغوبُ إلى اللّه تَعالى فيهما بقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: 201]، وقيل: لم يَعْنِ بقوله: ﴿كِفْلَيْنِ﴾ أيَّ نعمتين اثنتين، بل أرادَ النِّعمةَ المتواليةَ المُتَكَفِّلَةَ بكفايته، ويكونُ تثنيتُه على حَدِّ قولهم: (لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ)[2].

معنى ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾:

جاءتْ ﴿مِن﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ ابتدائيَّةً مجازيَّةً، أي: ذلك من رحمةِ اللّه تَعالى بِكُم، وهذا في جانِب النَّصارى، وذلك لإيمانهم بمحمَّد ﷺ وإيمانهم بعيسى، وهذا مِن فضلِ اللّه تَعالى وإكرامه وإلّا فإنَّ الإيمان بمحمَّد ﷺ واجبٌ عليهم كإيمانهم بعيسى عليه السلام، وهو متمِّمٌ للإيمانِ بعيسى، ويجوز أن يكون ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ صفةً لـ ﴿كِفْلَيْنِ﴾، وتكونَ ﴿مِن﴾ بيانيَّةً، والكلامُ على حذفِ مضافٍ، تقديرُه: وهو ثوابُ الجنَّةِ ونعيمُها[3].

ابتداءُ الفَضْلِ والرَّحمة من اللهِ تَعالى

سِرُّ التَّعبيرِ بِالرَّحمةِ دونَ الفَضلِ في قولِه: ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ بالرَّحمةِ دونَ الفضلِ؛ وذلك لأنَّ الرَّحمة في الأصل تتناول المغفرةَ والعفوَ واللُّطفَ، وأمّا الفَضْلُ؛ فهو العطاءُ الزّائدُ ابتداءً بلا سبب[4]، ولمّا كان السّياقُ في الآية الكريمةِ أقربَ لمعنى إسباغِ العَفْوِ والمغفرة على ما اقْتَرَفَه أهلُ الكتابِ وأمّة الإسلام قبل إيمانِهم مِن المعاصي والذُّنوب؛ كان التَّعبيرُ بالرَّحمةِ أشمل وأوقعَ، وكذلك فإنَّ الرَّحمة عادةً ما تتناولُ النِّعم المعنويَّة، والفضل يتناولُ النِّعم المادّيَّة، والإنعام بالمغفرةِ والعفو من النِّعم المعنويَّة، لذا كان التَّعبيرُ بها أنسبَ للسّياق وأوفقَ للمعنى.

الرَّحمة في الأصل تتناولُ المغفرةَ والعفوَ واللُّطفَ

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كفل).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (كفل).
(3) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 428.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).

سِرُّ إضافةِ الرَّحمةِ إلى الضَّميرِ لا إلى الاسم الأحسَن (الله):

رحمةُ اللهِ تَعالى لأهـل الإيـمـان تشريفٌ لقَدْرِهِم ومكانَتِهِم عند اللهِ سُبحانَهُ

أضاف البيانُ القرآنيُّ الرَّحمةَ إلى اللهِ تَعالى في قولِه تباركت آلاؤُه: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾؛ دلالةً على التَّشريف والحفاوة بأهل الإيمان بالرُّسل السّابقين وبمُحَمَّدٍ ﷺ، وآثر النَّظمُ الإضافةَ إلى الضَّمير؛ لِما فيه من التَّفخيم وعلوِّ الشَّأن؛ إذْ لا يَنْصَرِف الذِّهنُ إلّا إليه سُبحانَهُ، وكذلك فإنَّ التَّعبير بالضَّمير أوجزُ وأخصرُ لسَبْقِ وُرودِ الاسم الكريم في قولِه: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الآية نفسِها، فعُدِلَ عن الإظهارِ؛ تنزيهًا للنَّصِّ البليغِ عن تكرارٍ يسدُّ مسدَّه الضَّميرُ على نحوٍ أبلغَ.

دَلالةُ العطفِ في قولِه: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾:

تـعـدُّدُ ألـوانِ الرَّحمة والفضل لِمَن آمـن برُسل اللهِ تَعالى

عَطَفَ النَّظمُ الجليلُ قولَه تعالى: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ على قولِه: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾؛ لبيانِ تعدُّدِ ألوانِ الرَّحمة والفضل بأهل الإيمانِ، وقد وصل البيانُ القرآنيُّ بين الجملتينِ لاتِّفاقهما في الخبريَّة، ولِما بينَهما من التَّناسُبِ لفظًا ومعنًى، فأمّا في اللَّفْظِ؛ فاتِّحادهما في الفعليَّة، وفي المسنَدِ إليه، وأمّا في المعنى؛ فلأنَّهما واردانِ لتعدادِ إنعامِ اللهِ تَعالى على أهل الإيمان، فيكون بين الجُمْلَتين توسُّطٌ بين الكمالَيْن.

سِرُّ التَّعبيرِ بالجعلِ في قولِه: ﴿وَيَجْعَل﴾ دونَ (يُنشِئ) أو (يُحدِث):

الجعلُ إعطاءُ الصِّفةِ الوظيفيَّةِ النّافعةِ لِما خَلَقَه اللهُ تَعالى

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبير بفعلِ الجَعْلِ دون الإنشاءِ أو الإحداث؛ لأنَّ الجَعْلَ إعطاءُ المخلوقِ الصِّفةَ الوظيفيَّة التي يقومُ بها، فالخلقُ والإنشاء والإحداث إبداعٌ، والجعلُ تسخيرٌ وتسييرٌ لهذا المخلوقِ المبدَع، وكذلك فإنَّ لفظَ الفعلِ (جعلَ) لفظٌ عامٌّ في الأفعالِ كلِّها، وهو أعمُّ من (فعَلَ) و(صَنَعَ) وسائرِ أخواتِها، ولذا فالجَعْلُ في اللُّغة فيه معنى التَّهيئةِ والتَّضمينِ والتَّبعيَّة، وإحداث شيءٍ من شيءٍ وتكوينه منْهُ[1]، وفيه إشارةٌ إلى الامتنانِ بالنَّجاة والهداية والتَّوفيق

(1) الراغب، مفردات القرآن: (جعل).

والنّور التي أكْرَمَهُم اللّهُ تَعالى بها، وبتهيئةِ هذا النّورِ بحيثُ ينتفعونَ به في الدُّنيا والآخرةِ، فلا هو بَرْقٌ ساطعٌ يُعْمي أبصارَهُم، ولا هو ضوءٌ خافِت لا ينتفعونَ به، بل هو نورٌ على نورٍ مِن فَضْلِ اللّهِ تَعالى ورحمتِه بأهْلِ الإيمانِ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارَعَةِ ﴿وَيَجْعَل﴾:

تجدُّدُ النّورِ لأهل الإيمانِ في الدُّنيا والآخرة

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بصيغةِ المُضارعةِ ﴿وَيَجْعَل﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ هذا الجَعْلِ بما يُنيرُ طريقَ هؤلاء المؤمنينَ في دُنْياهُم وآخراهُم، بنورٍ متجدِّدٍ في عقولِهم وقُلوبِهم في الدُّنيا، وبنورٍ لا يَنْقَطِعُ في الآخرة يَهْديهم سواءَ الصِّراط.

مَعْنى اللّام في ﴿لَّكُمْ﴾، ودَلالةُ تَقديمِ شبه الجملة:

الاهتِمامُ البالغُ بأهلِ الإيمانِ جزاءَ سَيْرِهِم على دَرْبِ الأنبياءِ

جاءَ تقديمُ القيد ﴿لَّكُمْ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾؛ للعناية بتَخْصيصِ هذا النّور الباهِرِ لِمَن آمَنَ بالرُّسُلِ المتقدِّمة، ثُمَّ آمن بمُحَمَّدٍ ﷺ، وبِمَن آمَنَ من أمَّةِ الإسلام، وزاد هذا الاهتمامُ بالتَّعبير باللّام الدّالَّةِ على التَّخصيص، فأفادت أنَّ هذا التَّخصيصَ تشريفٌ وبُشْرى سارَّةٌ لهم، وفيه كذلكَ حثٌّ للفريقين جميعًا على تحقيقِ صدقِ الإيمانِ به ﷻ، لنيل هذا النّور المُبين في الدُّنيا والآخرة.

سرُّ إيثار لفظ ﴿نُورًا﴾ دونَ (ضوءًا):

في التَّعبير بالنّورِ دلالةٌ على السَّلام والصّفاء والرّاحة

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ عمّا وهبه اللّهُ تَعالى برحمته لأهل الإيمانِ بلفظ ﴿نُورًا﴾ في قولِه: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾، وعدلَ عن لفظِ (ضوء)، وذلك لِما بَيْنَهُما مِنَ الفَرْق الدّلاليِّ؛ إذِ الضَّوء هو الأشِعَّة الصّادرةُ عن جِسْمٍ مُلْتَهِبٍ مُضيءٍ بذاته، فلَفْظُ الضَّوء يتضمَّنُ الحرارة، وهو مرتبطٌ عادةً بالشَّمس والنُّجوم المُشْتَعِلَة، أمّا النّورُ؛ فهو انعِكاسُ هذا الضَّوء على الأجسامِ المُظْلِمَة[1]، وهو مرتَبِطٌ عادةً بالقمرِ

(1) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (ضوأ) و(نور).

خاصَّةً في اللَّيالي البدريَّة الجميلةِ، ففيه إشارةٌ إلى ما يَجْلِبُه النّور مِن سلامٍ وصفاءٍ وراحةٍ نَفْسيَّة، والنّور ضربانِ: دنيويّ، وأخرويّ، فالدّنيويُّ ضربان: ضرب معقولٌ بِعَيْنِ البَصيرَةِ، وهو ما انتشر من الأمورِ الإلهيَّة، كنور العَقْلِ ونور القرآن، ومحسوسٌ بعَيْنِ البصَر، وهو ما انْتَشَر من الأجسام النَّيّرة، كالقَمَرَيْنِ والنّجوم والنّيّرات، فمن النّور الإلهيِّ قولُهُ تَعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة: 15]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: 122]، ومِنَ المحسوس الذي بعين البَصَرِ نحو قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5][1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالإفراد والتَّنكير في قولِه: ﴿نُورًا﴾:

نورُ اللهِ تَعالى لأهلِ الإيمانِ نورٌ فخْمٌ عظيمٌ يهدي القلوبَ والنُّفوسَ والعقولَ

آثرَ النّظمُ الجليلُ التَّعبير عن نورِ أهل الإيمان الذي جعله جزاءً لهم بلفظِ ﴿نُورًا﴾ مُفْرَدًا نكرةً؛ وذلك لأنَّ في الإفرادِ والتَّنكيرِ من تفخيم هذا النّور السّاطع الباهر ما لا يوجَدُ في الجَمْعِ والتَّعريف، فهو نورٌ من لدن اللهِ تَعالى لا يُشْبِهُ ما نَعْرِفُه من الأنوار الأرضيَّة، ففيه مِنَ العظمَةِ والفَخامَةِ والجَمال والبهاء ما يُسْعِدُ نُفوسَهُم، ويَهْدي قُلوبَهُم وعُقولَهُم.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمَشْيِ دونَ السَّعْيِ:

مشيُ أهلِ الإيمانِ مشيٌ هيِّنٌ لا اضطرابَ فيهِ

عُبِّر بالمَشْيِ في قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ دون السّعي؛ لأنَّ المَشْيَ يدلُّ على السّكينةِ والتُّؤَدَة والاهتداءِ بنور اليقين، بخلاف السّعي الذي قد يُفيد السُّرْعَة والاضطرابَ والحركة القَلِقة غالبًا، فالسّعي في اللّغة هو المشي السّريعُ الذي لا يبلغ حدّ العَدْوِ، وهو مَشْيٌ يَنْطَوي عَلى اجتهادٍ وحرصٍ ومُبادَرَةٍ، بخلاف المَشْيِ الذي قَد يُفهم منه التَّمهُّل[2]، كما في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾

(1) الراغب، مفردات القرآن: (نور).
(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 9/ 359.

[الجمعة: 9]؛ إذ المقامُ مقامُ جدٍّ ومسارعةٍ إلى طاعة اللّهِ تَعالى، أمّا في هذه الآية؛ فالمقصودُ سَيْرُ المُؤْمِن في دروبِ الحياة على بصيرة وهدًى بنورٍ إلهيٍّ يهديه في الظّلمات، فناسب لفظ المَشْي لِما فيه مِن طُمَأْنينَةٍ واعتدالٍ واستقامَةٍ على الطّريق؛ إذِ الهِدايَةُ نورٌ يَضْبِطُ الخُطا لا اندفاعَ يُلْهِبُها.

دَلالةُ التَّعبيرِ بَصيغةِ المُضارَعَةِ ﴿تَمْشُونَ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بصيغة المضارعةِ ﴿تَمْشُونَ﴾؛ للدلالةِ على تجدُّدِ مشي المؤمنينَ في دروب الحياة بالهدى واليقين، وعلى تجدُّد توفيقهم أثناء المشي إلى الجنَّةِ، فهو النور الذي يمشون به في الآخرة على الصراط إلى أن يصلوا إلى الجنة، وهذا النور هو علامة المؤمنين يوم القيامة يبرز لهم من صحائف أعمالهم[1]، فليست الهدايةُ بهذا النورِ مقتصرَةً على لحظةٍ بعينها، بل هو توفيقٌ دائمٌ في كلِّ حركاتهم وسكناتهم، وهذا من الفضلِ العميمِ والجزاءِ الجزيلِ من رب العالمين.

تجدُّدُ مشي المؤمنين بالهدى والحق في الدنيا، وإلى الجنَّةِ في الآخرة

دَلالةُ تَعديةِ ﴿تَمْشُونَ﴾ بِالباءِ دونَ (في):

عدَّى النَّظمُ الجليلُ فعل ﴿تَمْشُونَ﴾ بحرفِ (الباء) دون حرفِ الجرِّ (في)؛ وذلك لأنَّ (في) تدلُّ على الظَّرفيَّة المكانيَّة أو الزَّمانيَّة، فلو جاءت في هذا السّياق بأن يكون اللفظ: (يمشون فيه)؛ لفُهِمَ منهُ أنَّ النّورَ قد يَنْقَطِعُ عنهُم؛ إذا ساروا في مكانٍ آخَرَ لَيْسَ فيهِ نورٌ، أمّا التَّعبيرُ بالباءِ؛ فيدلُّ على المُصاحبةِ والملازمةِ والالتصاقِ، ويدلُّ على الاستعانَةِ كذلكَ، ولذا ففيهِ إشارةٌ إلى أنَّ هذا النّورَ الإلهيَّ ملازمٌ لهم في الدُّنيا والآخرةِ، لا ينفكُّ عنهم، فكأنَّهُم صاروا هُم بذَواتِهِم نورًا يتحرَّك في سبيلِ الهُدى والحَقِّ، فلا يَضِلّون عن طريق الإسلامِ والقرآنِ في الدُّنيا، ويوفَّقون بِه في السَّير في عَرصاتِ القيامةِ.

ملازمةُ النّورِ للمُؤمنين في الدُّنيا والآخرة، فكأنَّهم أصبَحوا نورًا أينَما ذَهَبوا

(1) محيي الدين شيخ زاده، حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي: 8/ 127 - 128.

بَلاغَةُ التَّمثيلِ في قولِه: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾:

قولُه تَعالى: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ تمثيلٌ لحالِ القوم الطّالبينَ التَّحصيلَ على رِضا اللّه تعالى والفوز بالنَّعيم الخائفينَ مِنَ الوقوعِ في ضدِّ ذلك بحالِ قومٍ يَمْشونَ في طريقٍ بِلَيْلٍ، يخشون الخطأ فيه، فيُعطَوْنَ نورًا يتبصَّرونَ بِهِ، فيأمَنون الضَّلالَ فيهِ، والمعنى: ويجعل لَكُم حالًا كحالِ نورٍ تمشونَ به، وجميعُ أجزاءِ هذا التَّمثيلِ صالحةٌ لتكون استعاراتٍ منفردةً، وهذا أبلغُ أحوالِ التَّمثيلِ، فالنّور مستعارٌ للهُدى استعارةً مصرَّحَةً مُرَشَّحة، و﴿تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ ترشيحٌ، إمّا أن يكون باقيًا على معناه، أو مجازًا لمعنًى يُناسبهُ[1]، وقد عُرِفَ في القرآنِ الكريمِ تشبيهُ الهُدَى بالنّورِ، والضَّلالِ بالظُّلمةِ، والبرهانِ بالطَّريقِ، وإعمالِ النَّظرِ بالمشي، وشاع ذلك بعدَ القُرآن الكريمِ في كلامِ أدباءِ العربيَّة[2].

نـورُ المُؤمِنين صراطٌ مستقيمٌ لهم في الدُّنيا والآخرةِ

سِرُّ اختلافِ التَّعبيرِ في الجَزاءِ المُعدِّ لأهلِ الإيمانِ:

وَصَفَ النَّظمُ الحكيمُ أهلَ الإيمانِ هَهُنا بأنَّ لهم نورًا يمشونَ به في قولِه تَعالى: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾، وكان قد وصَفَ المؤمنين والمؤمناتِ بأنَّ لهم نورًا يَسْعى، وذلك في قولِه: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾، والنّور واحدٌ في المَوْضِعَيْنِ[3]، ولكنَّهُ لمّا وصَفَ حركةَ النّورِ؛ وصَفَها بالسَّعْيِ بسرعةٍ ومضاءٍ، وحين وصفَ حركة المؤمنينَ أنفُسِهم؛ وصَفَهُم بالمَشْي؛ للدّلالة على هدوءِ أنفُسِهم وطمأنينةِ بالِهم.

يوصَفُ النّورُ بالسَّعي والمَضاءِ، أمّا المؤمنون؛ فيوصَفون بالمَشْي الهادِئ المُطْمَئِنّ

دَلالةُ العطفِ في قولِه: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾:

عَطَفَ النَّظمُ الجليلُ قولَه تعالى: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ على قولِه:

تعدُّدُ صورِ الفَضْلِ والمغفرة لمَنْ آمَنَ برُسل اللهِ تَعالى

(1) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 18/ 480.
(2) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 428.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 192.

﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾؛ لبيانِ تعدُّدِ صوَرِ الرَّحمة والفضل لأهلِ الإيمانِ، والوصلُ بينَهُما لاتِّفاقهما في الخبريَّةِ، ولِما بينَهما مِن التَّناسُبِ لفظًا ومعنًى، فيَكونُ بينَ الجملتَينِ توسُّطٌ بين الكمالَيْنِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بِالمغفِرَةِ دونَ الرَّحمةِ:

في المغفرةِ مَعْنى السَّتْر والصَّفْح والكِتْمانِ

لمّا سبقَ ذِكرُ الرَّحمةِ في قولِه: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾، وأعقَبَ ذلكَ بذِكْرِ النّورِ في قولِه: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾؛ ناسبَ ذلك ذِكر المغفرة في قوله تعالى: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾؛ لتَتكامَلَ لَهُم ألوانُ الفَضْلِ الإلهيِّ؛ لِما في المغفرةِ مِن مَعاني السَّتْر والصَّفْحِ والكِتْمان، فيَمْحو اللهُ تَعالى بفَضْلِه ما اقْتَرَفوهُ مِنَ المعاصي والذُّنوب.

دَلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعَةِ في ﴿وَيَغۡفِرۡ﴾:

مغفرةُ اللهِ تَعالى للمؤمنين متجدِّدَةٌ بتجدُّدِ توبَتِهم ما ابتَعَدوا عن الشِّرك باللهِ تَعالى

عبر النَّظمُ بالفعلِ المُضارع الذي يدلُّ على التَّجدُّد والحُدوثِ في قولِه: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهُ كلَّما أحدثَ العَبد ذنبًا؛ أوجدَ اللهُ تَعالى له مغفرةً، وفيه طَمْأنَةٌ لقلوبِ المؤمنين بأنَّه مهما تعاظَمَت ذُنوبُهُم؛ فإنَّ اللهَ تَعالى يَغْفِرُها؛ ما اجتنبوا الشِّرك، ورَضوا باللهِ تَعالى ربًّا وبالإسلامِ دينًا، وبسَيِّدنا مُحَمَّدٍ نبيًّا ورسولًا ﷺ، وفيه بشارةٌ بأنَّ بابَ المغفرة مفتوحٌ لا يُغلَقُ حتّى تطلع الشَّمسُ مِن مَغْرِبِها؛ لأنَّهُ لمّا كان الإنسانُ لا يخلو من نقصانٍ، فلا يبلغُ جميعَ ما يَحِقُّ للرَّحمن، فوعدهم سبحانهُ بتجدُّدِ مغفرةِ ما فَرط منهم مِن سهوٍ وعمدٍ وهزلٍ وجدٍّ[1].

دَلالةُ اللّامِ في قولِه: ﴿لَّكُمۡ﴾، وفائدة التعبير بشبه الجملة:

في التَّخصيص بيانٌ لمبلغِ العِناية الإلهيَّة والرِّعاية الرَّبّانيَّة

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بقولِه: ﴿لَّكُمۡ﴾؛ لبيانِ مزيدِ العنايةِ والاختصاصِ بمَن آمَنَ بالرُّسل السّابقين مِن أهْلِ الكِتاب، ولِمَن صدَقَ إيمانُه برسولِ اللهِ ﷺ، وإن كانت المغفرة عامَّة لِكلِّ مَن آمن باللهِ تَعالى، إلَّا أنَّ اللهَ سُبحانَهُ أرادَ أن يَزيدَ في إكرامِهم بهذا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 324.

التَّخصيص؛ ليَنْزَع ما في قلوب بعضِهم مِن أدرانِ ديانَتِه الأولى، وفي ذلك دليلٌ على مبلغِ العناية الإلهيَّةِ والرِّعايةِ الرّبّانيَّةِ لكثرة المَوانِع في قلوبِ هَؤلاءِ عامَّةً، ومُؤْمِني أهل الكتابِ خاصَّةً.

دَلالةُ حذفِ مُتَعَلَّقِ المَغفرَةِ في قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾:

شمولُ المغفرةِ وعمومُها

حذفَ النَّظم الجليلُ متعلَّقَ المغفرة في قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾؛ لبيان شمولِ المغفرة وعمومِها، فإنَّه سُبحانَهُ واسِعُ المغفرة، ما اجْتُنِبَ الشِّرك باللّه، والغالبُ على النَّظمِ القرآنيِّ حذفُ متعلَّقِ الفعل (يَغْفِر)، وعليه سار النَّظم في هذا الموضعِ، وغالبًا ما يكون ذِكرُ المُتعلَّقِ - وهو الذُّنوبُ أو الخطايا - لنكتةٍ بعَيْنِها يقتضيها السّياقُ.

بَلاغةُ ترتيبِ الوعد الإلهيِّ في الآية:

التَّدرُّج في بيانِ درجاتِ الجَزاء الحسنِ تشويقًا لأهلِ الإيمانِ وحثًّا لَهُم

رتَّبَ النَّظمُ الحكيمُ ما وعد اللّهُ تَعالى به عبادَه المؤمنين مِن أهلِ الكِتاب وغيره، فبدأ ببيانِ مُضاعفَةِ الرَّحْمَة في قوله: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾؛ ليحثَّهم على التَّحوُّلِ عن إنكارِ رسالة مُحَمَّدٍ ﷺ، وهو مضاعفةُ الدَّرجاتِ في الرَّحمة، ثُمَّ ثنَّى بجَعْلِ نورٍ لهم يَمْشونَ به في قوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ طمأنةً؛ لقُلوبِهم على أنَّه قد أيَّدَهُم بما يَجْعَلُهُم ثابتينَ على طريقِ الحقِّ، فيخوضونَهُ غيرَ خائفين ولا وجِلين، وأخيرًا جاءَ الوعدُ بالمغفرةِ في قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾؛ لطَمْأنَة نُفوسِهم أنَّهم لَو وقعوا فيما لا يُحبُّ اللّه تَعالى؛ فإنَّه سُبحانَهُ واسِعُ المَغْفِرَة، فلا يَسْتَبِدُّ به القُنوط أو اليأس مِن رَحْمَتِه.

دَلالةُ عَطْفِ جملة الفاصلة بالواوِ:

ترسيخُ معنى المغفرةِ والرَّحمة بعد تأسيسه في الجملةِ السّابقةِ

وصلَ النَّظمُ الجليلُ قولَ اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بقوله تَعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بالواوِ؛ لاتِّفاق الجُملَتَين في الخبريَّة لفظًا ومعنًى، ولانتفاءِ مانعِ الوصلِ، ولأنَّ الجملةَ توكيدٌ لِما ورَدَ في قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، التي تَضَمَّنت تأسيس معنى المَغْفِرَة، ثُمَّ أكَّدته الجملةُ الثّانية بِما يُقَرِّره، ويُرَسِّخه في نفوس المُتَلَقّينَ.

بَلاغةُ التَّذييلِ بِقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

اللهُ تَعالى كثيرُ الرَّحمةِ واسعُ المغفرةِ

ذيَّلَ البيانُ الإلهيُّ هذه الآيةَ بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ للتَّأكيدِ على صفةِ المغفرةِ بَعْدَ التَّأسيس لَها في قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، على أنَّ هذا التَّذييلَ جارٍ مجرى المَثَلِ؛ لاستقلالِهِ وعَدَمِ افتقاره إلى ما قبلَهُ في إدراكِ تمامِ المرادِ مِنْهُ، وفيه إيماءٌ إلى عِظَمِ مغفرة الله تعالى لَهُم؛ لأنَّه كثيرُ الغفرانِ كثيرُ الرَّحمةِ بعبادِه.

دلالةُ مجيءِ جملة الفاصلة اسميَّةً:

دوامُ رحمةِ اللهِ ومغفرتِه فلا يحولُ دونها حائلٌ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بالجملة الاسميَّةِ الَّتي تدلُّ على الثُّبوت والدَّوام، فإذا كان المُعْطي والمُؤْتي والمُجازي هو الله ﷻ، وقد تعَدَّدت ألوانُ الجَزاءِ مِنْهُ، فَشَمِلَت الرَّحمة والنّور والمغفرة على وجهِ التَفضُّلِ دون واسطةٍ ودون التماسِ عِوَضٍ، فجاءت الجملةُ لتوكيدِ ثباتِ هذا العطاءِ الرَّبّانيّ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الأحسَنِ (الله):

توكيدُ تفرُّدِ المنعِمِ سُبحانَهُ بصفةِ الألوهيَّةِ واستحقاقِ العبادةِ

أتَت الآيةُ بالاسمِ الظاهرِ (اللهُ) في قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لزيادةِ التَّقرير والإيضاح، وليَبْعَث في النُّفوس الأملَ بواسعِ رحمةِ اللهِ تَعالى ومغفرته، ولأنَّ الاسمَ الأحسنَ (اللهُ) جامعٌ لكلِّ صفاتِ الكمالِ التي تَشتَمِلُ على كُلِّ أنواعِ العطاءِ والتَّفَضُّلِ، من عطاءِ الرَّحمةِ وعطاء المغفرةِ وعطاء السَّتْر وغيرِها، وفي الإظهار تذكيرٌ بصِفَةِ الألوهيَّةِ الغالبةِ، وهي استحقاقُ العبادةِ دون إشراكٍ لغَيْرِهِ في هذا الحقِّ الذي تفرَّد به سُبحانَهُ.

دَلالةُ الجَمْعِ بين الوصفين مِن غيرِ حرفِ عطفٍ:

استقلالُ كلِّ اسمٍ جليلٍ بتأسيسِ معنًى مستقلٍّ

جَمَعَ النَّظمُ الجليلُ بين صفةِ المغفرةِ والرحمةِ دونَ حرفِ عطفٍ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ ليَتَأسَّس على كلِّ اسمٍ من الاسمينِ الكريمينِ معنًى بمفردِه؛ انطلاقًا من كونِهِ خبرًا مستقلًّا، فكان الفصلُ بينَهُما أبلَغَ في أداءِ المعنى.

بَلاغةُ الجِناسِ بين قولِه: (يَغْفِرْ) و ﴿غَفُورٌ﴾:

تلذُّذُ السَّمعِ بمادَّةِ الغفرانِ كتلذُّذِ النَّفسِ بالعَفْوِ مِنَ الرَّحمنِ سُبحانَهُ

جاءَ جناسُ الاشتقاقِ بين (يَغْفِرُ) و﴿غَفُورٌ﴾؛ لتأكيدِ صفةِ المغفرةِ الغامرةِ من اللهِ تَعالى، فأسْهَم وقعه الجميلُ في تلذُّذِ السَّمعِ بمادَّةِ الغفران كتلذُّذِ النَّفس بالعَفْوِ مِنَ الرَّحمن ﷻ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكِفْلُ والنَّصيبُ:

جزاءُ الإيمانِ باللهِ تَعالى ورَسولِه عنايةٌ إلهيّةٌ شاملةٌ ورحمةٌ مُضاعفَةٌ

النّصيب في اللُّغةِ: المقسوم والمقدَّر من خيرٍ أو شرٍّ، فهو مُحايد القيمَة، يقال: نصيبُه من النّعيم أو من العذاب[1]، وأمّا الكِفل؛ فهو الضّمُّ والتَّكفُّل، فيُشعر بالرّعاية والاحتواءِ والضّمان[2]، والكفلُ والنَّصيبُ كلاهما بمَعْنى الحظِّ، ومِن معاني الكفلِ في اللُّغةِ: النَّصيبُ المُساوي، ومِنها: المثل، أمّا النَّصيب؛ فهوَ مُطلقٌ، والنَّصيب عامٌّ: صغيرٌ وكبيرٌ وأكبرُ، وليس له شيءٌ محدَّدٌ، ومن هنا وردَت كلمَةُ (كِفْل) عند ذكر السَّيِّئة في قولِه: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾ [النساء: 85]؛ لأنَّ السَّيِّئات تُجزى بقَدْرِها، ولا يُزادُ عليها، بدليل قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ﴾ [غافر: 40]، أمّا الحسنةُ؛ فتُضاعَفُ، وتَتَّسعُ، وتَعْظُمُ، وقد تكون عشرةَ أضعافٍ، وقد تكون أكثرَ، ولَم يُحَدَّد أنَّها مثلُها؛ لذا جاءت كلمة (نصيب) مع الحسنات؛ لأنَّ الحسنةَ لها نصيبٌ أكثرُ من السَّيِّئات، وجاءَ الكفلُ هَهُنا بمعنى المثل؛ لأنَّ المرادَ أنَّ لهم مِثْلَيْن من أجْرِ غيرِهم ممَّن لم يُؤْمِن بسائرِ الأنبياءِ، وكذلك ففي مادَّة الكافِ واللّام والميم ما يدلُّ على الضَّمانِ والكفايةِ والثِّقلَ ومضاعفةِ الأجر، وهي معانٍ أنسبُ للسّياقِ من معاني النَّصيبِ أو الضِّعفِ أو المِثْلِ؛ إذِ المرادُ رَحمَتانِ مَضْمومَتان مُحيطَتان بالمؤمنين، تكفَّل اللهُ تَعالى بهما جزاءً لإيمانهم باللهِ تَعالى ورَسولِه، فدلَّ اللَّفظُ على عنايةٍ إلهيَّةٍ شاملة ورحمة مُضاعفَةٍ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 54.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الستون،
سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 60 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-66-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 60 : المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-66-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5294607 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"